مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن زماننا كثير التعقيد كثير التحديات، كما أنه كثير الفرص والبدائل والمعطيات. وإن كثيرًا من الناس يعانون من كثرة الانشغال وغياب وَعْيهم عن كثير من القيم والمفهومات التي تشكل جوهر حياتهم. ويضحي النجاح في لفت انتباههم إليها عملاً قيمًا في حد ذاته؛ ولو كانت استجابة الناس محدودة.

وأعتقد أن علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد في سبيل إثارة اهتمام جماهير المسلمين نحو قضايا التربية والتعليم؛ بوصفها القضايا الأكثر فاعلية في تشكيل ملامح الأجيال الجديدة. ولن نستطيع أن ندرك مدى حاجتنا إلى المدارس الجيدة إلا إذا تصورنا جيلاً من غير قراءة ولا كتابة، وآنذاك لن ترى سوى الأُمِّيَّة وضيق الأفق والسذاجة والخرافة والبطالة وتدهور الشخصية وتفاهة الاهتمامات... وهذا يعني انهيارًا كاملاً للإنسان، وبالتالي للمجتمع. ولهذا فإن كَوْن أول كلمة يهبط بها جبريل ـعليه السلامـ على النبي ـصلى الله عليه وسلمـ تحث على القراءة يُعَدُّ عميق الدلالة في هذا الشأن.

وحين نركِّز اليوم على ضرورة رفع سوية التعليم، وتحسين مستوى الدارسين في المدارس والجامعات؛ فإننا نأخذ بعيْن الاعتبار أننا نعيش في عالم مفتوح يمور بالتواصل والتأثر والتأثير المتبادل. وإن قيمة ما تقدمه مدارسنا ومعاهدنا من تربية وعلم وتدريب لن تكون مطلقة، وإنما بالقياس إلى ما تقدمه المؤسسات التعليمية لدى الدول الصناعية؛ لأن طبيعة العلاقة بين العالم الصناعي والعالم النامي ـ أوجدت معادلة تقول: إن أي تفوق يحرزه أبناء الدول الصناعية

الكبرى -في أي مجال- سوف يدفع أبناء الشعوب النامية جزءًا من تكاليفه. كما أن أي تقدم يحرزه أبناء الشعوب النامية -في أي مجال من المجالات- سيؤدي إلى تحسين موقعهم في تبادل المنافع مع الشعوب المتقدمة، وسيدفع هؤلاء في مقابله شيئًا لهم... وهكذا.

ويمكن أن نستجلي أهمية الارتقاء بالتربية والتعليم من خلال المفردات الآتية:

1- إن فهم الإسلام والتفاعل مع مبادئه وأطره وآدابه؛ لا يتم في حقيقة الأمر من غير امتلاك درجة جيدة من الرقي الفكري والثقافي والشعوري؛ ذلك أن تحرير العقل من أغلال الوثنية والخرافة والجهل، والارتقاء باهتمامات الإنسان، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وقيادة الذات من خلال السيطرة على رغباتها، وتأسيس علاقات اجتماعية تقوم على الرحمة والتعاون والإنجاز المشترك... إن كل هذه الأمور من جملة ما يهدف الإسلام إلى جعله واقعًا حيًّا في حياة الناس.

وهذه المعاني والمفهومات والرموز الراقية يصعب على الوعي البشري التعامل معها وتمثلها من غير وسيط ثقافي ومعرفي، وهذا الوسيط يوفره التعليم في مراحله المختلفة. ونحن -مع الأسف- لم نقم إلى الآن بأي دراسة شاملة وذات قيمة حول تأثير الأمية وتدني درجة التعليم في ضعف الالتزام والإعراض عن المنهج الرباني الأقوم. لا ريب أن العلم لا يجعل المسلم دائمًا أفضل التزامًا، ولكن يجعله أكثر حساسية نحو مسائل التدين والارتقاء الخلقي والفكري، وتلك الحساسية بعيدة الأثر في جعل المرء أكثر استعدادًا لأن يستمسك بالحق، ويضحي من أجله، ولأن يحرص على أن يتخذ موقفًا واضحًا تجاه مسائل الحياة المختلفة. وهذا كله يدني المرء من التدين، ولا يبعده عنه.

وهذا ما نشاهده في الصحوة الإسلامية المباركة التي نتفيأ ظلالها؛ حيث إن معظم أبنائها من المثقفين وطلاب الجامعات وخريجيها.

2ـ التقدم العلمي والتقني الذي يشهده العالم في كل لحظة أعطى للتعليم أهمية إضافية، حيث إن كل المعادلات تتجه لتصبَّ في صالح كل ما هو صناعي ومكتسب. وكما قلل التعليم والتدريب من أهمية القدرات العقلية الفطرية، فإن التراكم العلمي والتقني، والتقدم في مجال التنظيم والإدارة صار يقلل على نحو متزايد من أهمية الثروات الطبيعية، ومساحات الأراضي الشاسعة، والأنهار الغزيرة... في قدرة الأمم على حلّ مشكلاتها الداخلية، وقدرتها على المنافسة في الأسواق العالمية. يقول (ثورو) الاقتصادي الأمريكي المعروف: «في القرن الحادي والعشرين ستصبح مهارات قوة العمل والتعليم هي السلاح التنافسي الأول. ولن تعتمد الميزة التنافسية على ثروات الموارد الطبيعية؛ حيث إنه يُعتقد بوجه عام أن الصناعات الرئيسة السبع للعقود القادمة هي: الإلكترونيات الدقيقة، والتكنولوجيا الحيوية، وصناعة المواد الجديدة، والطيران المدني، والاتصالات، وأجهزة الإنسان الآلي المزودة بآلات القطع والتشكيل، والحاسبات الآلية، والبرامج. وهذه كلها صناعة المقدرة العقلية. وأي منها يمكن توطينه في أي مكان على وجه الأرض. والموقع الذي ستُقام فيه يتوقف على من يستطيع تنظيم المقدرة العقلية من أجل السيطرة عليها؛ ففي القرن القادم (الحالي) ستكون الميزات التنافسية من صنع الإنسان».

هذا كله يعني أن الأمم التي تعلِّم وتربي وتدرب بطريقة أفضل هي الأمم المرشحة لأن تتبوأ القمة. وهذا ما نشاهده اليوم في حياتنا، فمعظم الأمم ذات الدخل الاقتصادي المرتفع (أوروبا واليابان نموذجًا) لم يتحسن اقتصادها بسبب ما تملك من ثروات، وإنما بسبب توظيف العلم والمعرفة وتقدم الصناعة.

3ـ كان الإنسان في الماضي كثيرًا ما يعاني من الشعور بالضعف تجاه مظاهر الطبيعة من عواصف وسيول وحر لافح وبرد قارس وجفاف وحيوانات مفترسة ووعورة طرق... والآن قد أمكن التغلب على معظم ذلك، وصار الإنسان يجد نفسه في مواجهة مشكلة أخرى، هي: كيف يتصرف بهذه الإمكانات العلمية والتقنية الهائلة التي أصبحت تحت يديه؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمتلك الحكمة في إدارة الحرية الواسعة التي باتت في حوزته؟

لقد صار من مسؤولياتنا الكبرى أن نسعى إلى ترويض أنفسنا وأُسَرِنا وطلابنا على استخدام المنتجات التقنية الحديثة فيما يعود علينا بالنفع؛ وذلك لأن كل منتجات الحضارة قابلة لأن تستخدم بطريقة ترقى بالإنسان، وتدفعه نحو الأمام؛ كما أنها قابلة لأن تستخدم على نحوٍ يجلب له الانحطاط. فالهاتف الجوال ـمثلاًـ يمكن أن يكون وسيلة جيدة للتواصل مع الأهل والأرحام وقضاء المصالح وتوفير جهد الانتقال... كما يمكن أن يستخدم وسيلة للثرثرة وتبادل النكات والطُّرف والتظاهر بالرقي وتنظيم الجرائم. وقُلْ مثل ذلك في الأدوية والأسلحة والسيارات وشبكات المعلومات... ومهمة البيوت والمدارس أن تملِّك الناشئة الأخلاقيات التي تجعلهم يشعرون بالمسؤولية تجاه الإمكانات والمنتجات التقنية. إن قدراتنا في ازدياد مطرد، وستقع مآس كثيرة إذا لم يصاحبها تحسن في الأخلاق وصلابة في الإرادة وزيادة في الوعي. وهذا كله لا يتوفر إلا عن طريق المزيد من التعلم، وهذا ما يمكن أن تقوم به المدارس على أحسن وجه إذا أدركت مسؤولياتها على النحو الصحيح.

ومن المؤسف أن كثيرين منا لم يدركوا بعد أن بين معطيات العلم واتجاهات الحضارة مفارقات ليست بالقليلة، وأن تراكم منتجات الحضارة لا يؤدي بالضرورة إلى تحسين نوعية الإنسان والارتقاء بالحياة، بل إن كل الدلائل تشير

إلى أن سلوك الناس يتشكل ليس على هدي العلم، وإنما على وقع الرغبات والشهوات وتأثيرات الدعاية التجارية. وهذا لا يقلل من دور العلم ولكن يحفزنا على تقديمه بطريقة معينة.

4ـ إن البارئ ـجل وعلاـ كرَّم الإنسان، وسخر له ما في السماوات والأرض، ومنحه قدرات هائلة على النمو والتقدم، ولكن بما أن الدنيا دار ابتلاء، فإن إمكاناته هذه لا تبرز إلا من خلال المعاناة وتحمل المشاق التي نجدها في التعليم والتدريب والتنظيم. ومن غير هذه الأمور فإنه يمكن للإنسان أن يتدنى إلى منزلة لا يفقد فيها إنسانيته فحسب، وإنما يتحول إلى مؤذٍ ومخرِّب. إن الحيوان يولد مزودًا بخطوط غريزية تحدد مسالكه واتجاهاته وحدود رغباته؛ ولذا فإن لوحشيته حدودًا تنتهي عندها، فهو لا يصطاد مئة فريسة ليأكل واحدة منها كما يفعل الإنسان، حين يوقع صاحب مؤسسة الألوف من عماله في البؤس والعنت والضيق من أجل زيادة درجة رفاهيته، أو من أجل تكديس أموال لا يعرف ماذا يعمل بها!

إن الإنسان الحديث صار أشبه بمخلوق عجيب ينمو جسمه على نحو سريع لكن ضميره وخلقه وإرادته وقدرته على التحكم برغباته في حالة من التجمد وأحيانًا في حالة من التقهقر والتراجع، فهو ليس إنسانًا مشوهًا فحسب، ولكنه يوشك أن يصبح إنسانًا خارجَ السيطرة، وبذلك تصبح تصرفاته من غير معنى ولا هدف، بل عبارة عن أحاسيس متفجرة، وتغدو خبراته وكأنها من غير شكل ولا لون!

وتأمل معي بعمق قول الله ـجل وعلاـ: {**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**} [**الفرقان**: 44]؛ ولذا فإن على مؤسساتنا العلمية بكل مراحلها أن تجعل من أهدافها الأساسية في التعليم تزويد الطلاب بالمزيد من الحكمة والفهم

والبصيرة بنوعية الاستجابات التي تصدر عنهم، وبالاستجابات التي ينبغي أن تصدر عنهم في مواجهة مغريات الحضارة وتحدياتها.

5ـ فيما مضى كان ما هو مطلوب لحياة كريمة طيبة محدودًا سواء على مستوى الاستعداد الشخصي والمكتسب الثقافي، أم على مستوى السكن والأكل واللباس والعلاج. أضف إلى هذا أنه بسبب ضعف الحراك الاجتماعي وبطء التغيير والتطور، كانت طموحات الناس محدودة، والآمال التي تداعبهم بحدوث طفرات واسعة في أحوال معيشتهم كانت هي الأخرى ضئيلة جدًّا. وكثيرًا ما كانت تتحدد الأوضاع العامة التي سيحيا فيها الإنسان قبل ولادته من خلال المكانة التي تحتلها أسرته، ومن خلال الأشياء التي تملكها. أما الآن فقد تغير كل شيء على نحو جذري ولكن إحساس الناس بهذا التغير مختلف. والذي يصنع الفرق في أحاسيس الناس واستجاباتهم تجاه الفرص والتحديات هو العلم والعلم وحده. و(الشيفرة) المعقدة لبنية الحياة المعاصرة تُحلّ من خلال التثقف.

إن التعليم إن لم يوصل المتعلم إلى طريق الهداية أوجد لدى صاحبه استعدادًا للتساؤل عنها وقبولها. والتربية الصحيحة وإن كانت ليست مطالبة بتوفير فرص عمل للشباب، لكنها تؤهلهم للتلاؤم مع الفرص الموجودة والفوز بها.

مهما أطنبنا في توضيح ما تقدمه المدارس لأبنائنا فإننا لن نوفيها حقها. ومهما تحدثنا عن فضائل العلم والعلماء، فسوف نشعر بالتقصير، ويكفي في هذا قول الله ـتعالىـ: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}** [الزمر: 9] ، وقوله: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ}** [المجادلة: 11] .

أي جل نبني؟

هذا السؤال يُعد من أكثر الأسئلة مركزية وجوهرية في مقام التربية؛ حيث إن معرفة المواصفات التي يجب أن تتوفر في الجيل القادم ـ تعد أكبر مساعد لنا على معرفة نوعية الاهتمامات التي سنثيرها في نفوس أبنائنا وطلابنا، ونوعية الأنماط السلوكية التي نوجههم إليها، والأفكار والمعطيات الثقافية التي نحفزهم على تشربها.

ومع أن كل الأسر والمدارس تقوم بالتوجيه، وتسعى إلى نوع من النهوض بأبنائها؛ لكن أولئك الذين ينجحون في مهماتهم على النحو المقبول يظلون دائمًا قليلين. وكثيرًا ما يكون غموض ما يريدون الحصول عليه سببًا مهمًّا في إخفاقهم. ولا أعني بالوضوح هنا المعرفة التامة بأهداف التربية، وإنما أعني حضور الهدف في الممارسة التربوية اليومية، وإدراك المربي للمقولات والتصرفات التي تساعد على الاقتراب من ذلك الهدف. وعند هذه النقطة يفترق كثير من المربين عن بعضهم؛ إذ إن عدم الإلمام بالأهداف الأساسية إلى جانب عدم وجود ثقافة تربوية جيدة لدى كثيرين ممن يمارس التربية يؤدي إلى عدم تناسق الجهود التربوية، بل إلى تصادمها. ولا يخفى أن عدم بعض المربين خير من وجوده؛ لأنه يفسد فطرة من يربيه، ولا ينهض به، ولا ينمي إمكاناته، ولا يرشده إلى الطريق القويم، بل يكوِّن لديه الاتجاهات السيئة التي تضره، وتؤدي إلى انحرافه!

وإذا أردنا أن نحدد هدفًا إجماليًّا للتربية الإسلامية، أمكننا أن نقول: إن التربية الإسلامية في البيوت والمساجد والمدارس تستهدف تكوين (المسلم الحق) الذي يعيش زمانه في ضوء العقيدة والمبادئ التي يؤمن بها، ولعل النقاط السريعة التالية تشكل ما يشبه (كُتيب الإرشادات) الذي يمكن أن نعود إليه بين الفينة والفينة؛ كي نتأكد من أننا لم نهمل أي شيء مهم.

وإليك سردًا سريعًا بتلك النقاط:

- تعريف الناشئة على الله ـجل وعلاـ، وأنه الخلاق الرزاق المعين الواحد الأحد الذي يستحق منا إخلاص العبادة، وغرس حب الله ورسوله في نفوسهم.
- إطلاع الناشئة على الخصائص العامة للإسلام من الشمول لكل جوانب الحياة والعالمية وصلاحيته لتوجيه حياة الناس في كل العصور، بالإضافة إلى ما اتسمت به الشريعة السمحاء من التخفيف والتيسير، ورفع الحرج، ومراعاة الظروف الخاصة والطارئة.
- تنشئة الأبناء على الأخلاق الفاضلة مثل الصدق، والأمانة، والإحسان، والصبر، وتوقير الوالدين، وصلة الأرحام، وبذل المعروف، ونصرة المظلوم، والوقوف إلى جانب الضعيف، والعفو، والتسامح.
- تعزيز روح الانتماء إلى أمة الإسلام، والانتماء إلى المجتمع المسلم الذي يعيش فيه الناشئ، والتربية على المحافظة على الموارد الطبيعية، والمحافظة على المرافق العامة والمساهمة في تنميتها.
- بث روح الإصلاح في الناشئة، وإشعارهم بمسؤوليتهم تجاه القيام بالدعوة إلى الله ـتعالىـ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشجيع الخير ومحاصرة الشر.
- العمل على تأكيد أن العلم للعمل ـفي نفوس الطلابـ ، وأن المسلم مطالب بمجاهدة نفسه؛ كي تتطابق أفعاله مع أقواله وأقواله مع معتقداته.
- مساعدة الطالب على اكتشاف ذاته؛ من خلال تعريفه على الخطوط الرئيسة التي توجه سلوكه، ومن خلال إطلاعه على طاقاته الكامنة، ومن

خلال تدريبه على تفحص الأفكار التي يحملها عن الحياة والأحياء بغية تنقيتها وتعديلها.

- إشعار الناشئ بضرورة تحمله للمسؤوليات والنتائج المترتبة على اختياراته الخاصة في كل شؤون حياته.
- تخليص أذهان الطلاب من الأوهام والمعتقدات والأفكار الخاطئة التي جاؤوا بها من بيئاتهم الخاصة، وتمليكهم بعض الأصول والقواعد التي تساعدهم على أن يفكروا بطريقة موضوعية ومنطقية.
- تنمية قدرات الطلاب على الملاحظة، ورؤية الارتباط بين الأسباب والمسببات، وبين المقدمات والنتائج.
- تدريبهم على الاستخدام الصحيح الدقيق للغة، وتدريبهم على صوغ الأجوبة القصيرة.
- تحفيز حب الاستطلاع، وتدعيم روح التساؤل والمشاركة والمناقشة للقضايا المختلفة.
- تكوين النظرة العلمية من خلال معرفة المسلَّمات والخلافيات في التخصص الذي يدرسه الطالب، ومن خلال معرفته بتاريخ ذلك التخصص وفلسفته وأشكال النمو المتاحة له، والآفاق التي تنتظره.
- تكوين العقل المثقف، وهو الذي يملك عددًا جيدًا من المقولات والخبرات التي تؤهله للتعامل مع مسائل الحضارة والتخلف والإنجاز والإخفاق.
- تدريب الطلاب على تقديم الحلول البديلة، وإثراء وجهات النظر في معالجة المشكلات المطروحة من خلال حصص للعصف الفكري.

- تحسين مستوى اتخاذ القرار في الشأن الخاص، ومساعدة الطالب على رسم أهدافه وتحديد أولوياته، وتنظيم ردود أفعاله.
- تمليك الطالب المبادئ والأساليب التي تساعده على التعلم المستمر، والاستزادة من المعرفة مدى الحياة.
- تدريب الطالب على امتلاك أسس المرونة الذهنية، والتلاؤم مع المتغيرات الجديدة.
- تعزيز الاحترام للمعرفة، وبيان دورها في إحراز التقدم الإنساني.
- تكوين الإنسان الحر الذي يمتلك حريته لا عن طريق الشعارات، ولكن عن طريق توفر البدائل، وعن طريق العلم والإرادة ومقاومة الرغبات.
- دلالة الطالب على العوامل والمقومات التي تجعله ناجحًا في حياته، وتخليصه من المفاهيم الخاطئة في هذا الشأن.
- تعزيز فهم الطالب للواقع وما يدور في أفق حياته اليومية، وتبصيره بأحوال العالم المعاصر.
- إظهاره على أسرار التقدم، ومكامن الغلبة لدى الأمم المتقدمة.
- تهيئة الطالب ليكون قادرًا على كسب رزقه؛ من خلال تلبية متطلبات سوق العمل، والتلاؤم مع الفرص المتاحة فيه.

وإني لأرجو من الله ـتعالىـ أن يعينني على توضيح المبادئ والمفهومات والآليات التي تسهم في مساعدة الأجيال على تحقيق هذه الأهداف.

وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مبادئ ومفهومات مهمة

إن الأمم حين تمارس التربية في البيوت، وحين تضع المناهج لأبنائها في المدارس؛ تنطلق من مجموعة من المبادئ والمفهومات التي تشكل الأرضية العامة التي يلتقي فيها حاضرها مع ماضيها من أجل مستقبلها. وهذه المبادئ والمفهومات كثيرًا ما يشوبها الغموض والاختلاط في بعض المجتمعات، ولا سيما المجتمعات التي لا تتمتع بدرجة عالية من شيوع المعرفة بين أبنائها. وهذا كثيرًا ما يحدث في البيوت حيث يكون الأبوان أميين في بعض الأحيان، أو يكون حظهما من الثقافة التربوية ضئيلاً.

والحقيقة أن هذه المشكلة لا تقتصر على البيوت ولا على الأشخاص الذين هم أقل ثقافة، وإنما تمتد إلى بعض الذين فرَّغوا أنفسهم لمهنة التعليم؛ إذ إن أعدادًا ليست قليلة منهم ينشغلون بالتخصص عن امتلاك الثقافة الإسلامية الجيدة، كما أن ثقافتهم العامة تكون أيضًا دون المستوى المطلوب.

هذه المبادئ والمفهومات الأساسية مع أنها قد لا تتصل جميعًا بالعمل التربوي على نحو مباشر، لكنها على كل حال تشكِّل الفضاء الحضاري الذي تتنفس فيه كل جهودنا الإصلاحية على اختلاف مجالاتها ومستوياتها. ونحن نعلم أن من خصوصيات ميدان التربية أنه يعتمد في حركته وتطوره على حقائق ومفهومات مأخوذة من ميادين معرفية متعددة، قريبة من التربية أحيانًا وبعيدة عنها أحيانًا أخرى؛ فالتربية أداة تنفيذية، تعكس في أحسن أحوالها ما تتطلع الأمم إلى تحقيقه في أبنائها بناءً على ما جدَّ لديها من معارف وخبرات وظروف.

ولعلي أسوق هنا بعضًا مما أعُدُّه مهمًّا جدًّا في تشكيل خلفية مفهوماتية للتربية في النقاط الآتية:

عصر جديد:

يعيش العالم الإسلامي اليوم في مركز إعصار العولمة، حيث وُضِع العالم فيما يشبه الخلاطة الكبيرة، ولم يعد هناك شيء مغلق أو بعيد. والعزلة التي كانت تحمي الأمم الضعيفة خصوصيتها الثقافية من خلالها صارت الآن على مستويات عدة مستحيلة. وصارت السمكة الصغيرة أمام السمكة الكبيرة وجهًا لوجه فماذا عساها أن تفعل؟

إن لأمة الإسلام طريقها الخاص في الحياة، ونظرتها للفرص والمخاطر نظرة متفردة، تنبع من خصوصية عقيدتها ومنهجها. إنها ذات هوية خاصة تشكلت من مجموع مبادئها الكبرى ورؤاها الكلية، وهذه الهوية تتعرض للمخاطر أكثر فأكثر كلما زادت الحياة تعقيدًا، فالوعي البشري يرتبك ارتباكًا شديدًا في التمييز بين الأمور حين يواجه فيضًا غير معتاد من الصور والرموز والمفهومات والنماذج التي لا عهد له بها، كما ترتبك معدة إنسان نباتي إذا أكل وجبة دسمة جدًّا. الهوية تنطمس في أذهان الناشئة، ويضيع الكثير من معالمها في ظل انعدام التكافؤ الإعلامي بين الداعين إلى ترسيخ الهوية الإسلامية وبين المطبلين للعولمة والحالبين في إنائها.

هذا فضلاً عن أن من طبيعة (الهُوية) أنها تحتاج إلى اكتشاف مستمر وبلورة دائمة؛ وذلك من خلال الطرح النظري والموقف العملي. وأعتقد أن الأمة لن تستطيع المحافظة على أبنائها إلا من خلال تحسين أدائها الإعلامي والتربوي ليكون أصيلاً ومعاصرًا في آن واحد. وعلينا العمل على عدد من الخطوط الثقافية؛ منها:

1ـ الاهتمام بتوعية الجيل بخصوصية أهداف الأمة في هذه الحياة، والتي تتمثل في الفوز برضوان الله ـتعالىـ، ونشر الإسلام وتبليغ الدعوة، إلى جانب توفير الحياة الكريمة والعزيزة والآمنة لكل واحد من المسلمين. والمفروض أن تسعى كل الجهات المهتمة بالتثقيف إلى بلورة هذه الأهداف وعرضها في أعمال إعلامية وقصصية ومسرحية كثيرة، وإيجاد أُطُر وقنوات مهمتها شرح تلك الأهداف للأبناء في البيوت والمدارس، وتوضيح متطلبات تحقيقها، بالإضافة إلى تبيين الآثار التي تترتب على عدم الاكتراث بها.

2ـ إدارة الإمكانات المتاحة على نحو جيد. وقد أثبتت شواهد كثيرة معاصرة أن الإدارة الجيدة للإمكانات البشرية والمادية المتوفرة؛ لا تقل أهمية عن حجم الإمكانات نفسها بل تزيد. وتتوقف جودة الإدارة هنا على ارتقاء العنصر البشري الذي تلقى من التأهيل والتدريب ما يجعله واعيًا بعصره، مستعدًّا لدفع تكاليف العيش فيه من الجدية والمثابرة، وتنظيم الشأن الخاص، والتفاعل مع الجديد، واحترام النظم السارية، وحسن التدبير والاقتصاد في الإنفاق.

3ـ الانفتاح ومحاولة فهم المتغيرات الحاصلة. وكثيرًا ما يفسر بعض الناس ـمع الأسفـ الانفتاح على أنه نوع من الترهل الأخلاقي، وتلقف كل جديد مهما كان. وهذا يشكل إساءة بالغة للفكرة. إن الانفتاح لا ينبغي أن يُراد منه أكثر من الاستعداد والرغبة في الاطلاع على الجديد، ومحاولة الاستفادة منه في تحقيق أهدافنا، إنه أشبه باستعداد المحاور للسماع لمن يحاوره، وبعد أن يسمع بوضوح يقرر وجهة نظره تجاه ما سمع.

إن من المهم جدًّا أن نوضح للأبناء أن من الخطأ منح التقدير والأهمية لبعض الأشياء لا لشيء إلا لأنها قديمة، وأن نتوجس خيفة من بعض الأشياء لأنها

جديدة. الانفتاح المتزن يمكِّن الناشئ من رؤية الجديد ليس في إطار حداثته، ولكن في إطار نفعه وانسجامه مع ذاتيتنا وأهدافنا.

4ـ الاستعداد للارتحال والانتقال من بلد إلى بلد ومن وظيفة إلى أخرى؛ حيث إن من طبيعة التعقيد الشديد الذي يلف حياتنا المعاصرة، ويزداد يومًا بعد يوم أن يوفر الكثير والكثير من البدائل والفرص المختلفة، ولكن قصورنا الثقافي والتربوي لا يمكننا من التلاؤم مع البدائل والفرص الجديدة. إن أبناءنا بحاجة إلى العقلية وإلى النفسية التي تساعدهم على اكتساب المهارات، والتعرف على الوضعيات الجديدة. ولا ريب أن في ذلك نوعًا من الإزعاج، ولكن يظل ـعلى كل حالـ أفضل من البطالة والعيش على هامش العصر.

تشجيع المبادرة الحرة:

لعل مما أفادتنا به الخبرة والتجربة أن الأعمال الحضارية الكبرى لا تقوم إلا عن طريق الحماسة والرغبة والمبادرة الحرة؛ وأن الأمم العظيمة لا تشيد صروحها الحضارية عن طريق فرض القيود، ولا عن طريق المنع والزجر والتخويف، وإنما عن طريق التحفيز والتشجيع والمكافأة والمشاركة الواسعة.

وهذا يحتاج إلى روح مغاير للروح السائد في معظم بلادنا الإسلامية؛ حيث إننا نرى كثيرًا من المعلمين والمربين الأخيار يضبطون إيقاع الحركة في بيوتهم وفي مدارسهم ومؤسساتهم التعليمية أكثر بكثير مما ينبغي، ويستهلكون الكثير من جهودهم في هذا الشأن. وربما كانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يتصورون بديلاً لما يقومون به سوى الفوضى والتفلت، وتضييع الواجبات، والخروج على النظام والآداب العامة. وهم ينسون أنهم بذلك ينشغلون عن بناء الوعي لدى الطلاب، وتنمية روح المسؤولية الشخصية التي من غير قسط من الحرية لا تنمو ولا

تترسخ، كما لا تنمو الحاسة الأخلاقية والوازع الداخلي من غير ترك فرصة للاختيار. وينسى أولئك المربون أيضًا أن الحرفية الزائدة تؤدي إلى سوء الأخلاق، وتورث السأم والملل وضيق الأفق.

من المعروف أن نظام التعليم في اليابان صارم جدًّا، وهو يحاول بكل وسيلة تعزيز النمطية السائدة في المجتمع الياباني، لكنَّ المشرفين التربويين هناك وجدوا أن ذلك لن يتم على الوجه الصحيح إلا عن طريق حب الأولاد للنظام، واقتناعهم بضرورته للحياة. وهذا لن يتأتى إلا عن طريق واحد هو الانضباط الذاتي؛ ولذا فإنهم يسمحون بشيء من الفوضى داخل الفصول الدراسية؛ حتى تتولد الدوافع الذاتية للنهوض والنظام من خلال التوجيه الرفيق والهادئ. وأعتقد أن هذا ما يجب أن نقوم به.

مباهج الروح:

لا يخفى أن التنظيم العام لعالم التجارة والمال والأعمال جعل من أهم أسس نجاحه ونموه: جذب الناس إلى المزيد من الاستهلاك والإنفاق. وقد تولى الإعلان التجاري في الوسائل الإعلامية المختلفة قيادة المهمة. وفي ظل الفراغ الفكري والروحي الهائل الذي تعاني منه البشرية انساق الناس نحو المطلوب منهم، وصار من أكثر ما يشغل بالهم، ويستحوذ على اهتمامهم توفير المال الذي يحتاجونه؛ لإرواء غليلهم من امتلاك السلع الجديدة والمطورة والتي صارت توزع إلى أجيال، وقد وصل بعضها إلى الجيل السادس والسابع!! وكذلك توفير المال الذي يحتاجونه لارتياد الفنادق الفخمة والمطاعم الفاخرة!

وفي ظل وضعية كهذه صار من المستحيل توليد أي شعور بوفرة المال وكفايته؛ مما تسبب في إشاعة السرقة والغش والرشوة والتحايل والكذب

والتنافس غير الشريف والخروج على القانون... وهذه الوضعية آخذة ـمع الأسفـ في التوسع والانتشار!

إلى جانب هذا هناك نوع من الإعراض عن المتع الروحية والأخلاقية ـربما لأنها لم تجد الدعاية المناسبة!ـ مع أنها أطول زمنًا من متع الجسم وأقل كلفة، وصاحبها أبعد عن المشاحّة والمزاحمة. من المتع الروحية متعة القراءة والتزود من المعرفة واكتشاف المجهول. وهناك متعة تفوقها وهي متعة يجدها من يناصر الحق، ومن ينشر مبدأ يؤمن به، ومن يخلّص الناس من داء خلقي يفتك بهم، ومن يتغلب على شهواته، ويسيطر على نوازع الشر فيه. وهناك متعة تفوق كل ذلك، وهي نوعية الأحاسيس والمشاعر التي تغمر كيان المسلم حين يناجي الله ـجل وعلاـ ويتذلل بين يديه، وحين يؤدي واجباته الشرعية، ويجاهد نفسه في ذات الله.

من المهم جدًّا أن نوقف التدهور الحاصل الآن، ونقوم بالعمل بجدية على توجيه الناشئة نحو الإقبال على تحقيق سعادة لا تحتاج إلى المال، ولا تُدخل المرء في صراع مع الآخرين. ويجب أن يلمس ذلك الفتيان في بيوتهم ومدارسهم من خلال اهتمامات المربين وسلوكياتهم قبل نصائحهم ومواعظهم.

مجتمع مستنير:

من العسير أن تتقدم التربية في المدارس على النحو الذي نريد إذا لم يحدث تقدم اجتماعي عام؛ فالمعلمون مهما جوَّدوا أداءهم لا يستطيعون الانفراد ببناء الأجيال، فوسائل الإعلام وأخلاق الأقرباء والجوار وعاداتهم، بالإضافة إلى المفهومات الاجتماعية السائدة، والظروف الاقتصادية التي نحيا فيها... إن كل ذلك يترك بصمات قوية في شخصيات أبنائنا؛ وعلى سبيل المثال فإن الأمية

تتفشى بين كثير من أبناء المسلمين، حتى إنها تصل في بعض البلدان إلى نحوٍ من 80 ٪ في صفوف الرجال و 90 ٪ في صفوف النساء. وهذه الوضعية تجعل المجتمع يقوم على نخبة متعلمة بيدها كل شيء تقريبًا، لكنها لا تلقى المساندة المطلوبة من الجماهير الغفيرة التي لم تتلق التأهيل الكافي للقيام بدورها التربوي المطلوب، بل إن النخبة نفسها تتأثر سلبيًّا بأوضاع تلك القاعدة الاجتماعية العريضة. وقد تصاب النخبة بالترهل والإهمال بسبب عدم وجود قوة شعبية تحركها، وتدفعها نحو الأمام.

لن تستقيم أمور مدارسنا وجامعاتنا، ولن تستطيع القيام بدورها المنشود ما لم يتم ترتيب أوضاعنا الاجتماعية على هدي العلم والمعرفة، وذلك هو الذي يصبغ المجتمع بالصبغة العلمية؛ إذ إن المجتمع المتقدم علميًّا ليس هو المجتمع الذي يشيد المدارس والجامعات، وينشر الكتب ويقيم المهرجانات الثقافية... وإنما المجتمع الذي يسعى على نحو دائب إلى أن يصوغ حياته اليومية ونظمه وطروحاته وأعرافه وفق المعارف والمناهج التي يلقنها لطلابه في المدارس. وإذا أردت أن تعرف مدى توطن الروح العلمية والاهتمام بالعلم، فانظر إلى نوعية المناقشات والاهتمامات التي تسيطر على معظم الناس في أوقات إجازاتهم وفي أوقات الفراغ.

إن أمة الإسلام حظيت بصفوة مستنيرة، ومن مسؤولية هذه الصفوة أن تنشر في القاعدة العريضة من الناس استنارة عامة؛ من خلال وسائل الإعلام وبرامج الدعوة وخدمة المجتمع، ومن خلال جعل الجامعات والمؤسسات العلمية المختلفة منصات لمناقشة أشكال التخلف الذي يجثم على صدر الأمة، ومناقشة أشكال التصدع بين ما يعتقده المجتمع وبين ما يمارسه في حياته اليومية. ولدينا بعد هذا وذاك شريحة عريضة من الناس يمكن أن نسميها بالأغلبية الصامتة، وهي

لا تستطيع التعبير عن مشكلاتها ولا عن مصالحها، وإن من واجب الصفوة المستنيرة أن تجادل عنها، وتساعدها على تحقيق طموحاتها ونيل حقوقها.

وإذا استطعنا أن نجعل البحث عن الجديد، ومحاكمة الأمور إلى منطق العقيدة ومنطق العلم ـ حركة أمة لا حركة صفوة؛ فإننا نكون قد قطعنا نصف الطريق نحو المكانة المنشودة التي تليق بنا.

لا بديل عن السعي إلى التمدن:

لدى الإنسان قابلية كبيرة للانزلاق نحو البربرية والتوحش، بل إن في داخل كل منا وحشًا كامنًا يتلمظ، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض. وقد استهدفت الشرائع والرسالات السماوية حماية الإنسان من شرور نفسه، ومساعدته على السيطرة عليها، لكن ظل معظم الناس في كل زمان ومكان مهزومين أمام أنفسهم، وكانوا يجدون دائمًا أن (التحضر) وامتلاك أدواته ومعداته؛ أسهل عليهم من (التمدن) الذي يعني ارتقاء أهداف الإنسان وثقافته وفكره، وتعامله، وتحقيقه لذاته، وطريقة حله لمشكلاته. ولهذا فالمتمدنون قليلون على حين أن المتحضرين كثيرون. وهذا هو السبب الرئيس في فقد الحياة لطعمها الأصلي، وفي انتشار الظلم والعنف والفساد وأكل الحقوق.

لا بد لنا ـونحن نسعى إلى بناء جيل متمدنـ من أن نؤكد عددًا من المعاني المهمة؛ منها:

1ـ يعد الإسلامُ الإنسانَ مركز الكون، ويعد الارتقاء به مقدمًا على الارتقاء في العمران. ولذا فإن معظم نصوص الكتاب والسنة تركز ـعلى نحوٍ ماـ على تهذيب الإنسان، وتنقية عقله، وتوجيه مشاعره واهتماماته، وتحسين علاقاته.

2ـ لا يُقاس تقدم الإنسان بكثرة اختراعاته واكتشافاته، ولا بكثرة تجاربه، ولكن بتحقيق إنسانيته وتفوقه على ذاته. كما أن المدنية الحقة ليست هي التي توفر للناس الكثير من السلع والمرفهات، ولكنها التي توفر لهم السعادة والاستقرار والهناء. ولهذا فإن حوادث الانتحار ووضعيات التفكك الأسري شهود عدول على بؤس الحضارة الغربية التي يستظل بها الناس اليوم.

3ـ دائمًا في حياتنا أمور لا يمكن ضبطها عن طريق النظام والقانون، كما هو الشأن في العلاقة الأسرية وفي العلاقة بين الأساتذة والطلاب... وفي هذه الحالة فإن الإنسان المتمدن هو الذي يدير تلك الأمور والعلاقات بالرحمة واللطف والتسامح. أما الذي لا يمتاز إلا بأنه يملك كومة من الأشياء الثمينة؛ فإنه يديرها بالظلم والعنف والأنانية، على نحو ما تفعل بعض الدول العظمى بالشعوب المستضعفة، وكما يفعل بعض الأزواج وبعض أصحاب الأعمال!

4ـ الحيوان مسيَّر من قِبَل خطوط الغريزة لديه. والإنسان المحروم من التمدن تظهر غرائزه في سلوكه على نحو لافت؛ لأنه قريب في وضعيته العامة من الحيوان، ولو كان يتقلب بين الرياش، ويركب أفخم السيارات. أما الإنسان المتمدن، فإنه ينظم غرائزه، ويظهر براعة في السيطرة عليها، وبذلك يتحرر من سلطانها، ويخضع لسلطان العقل والحكمة. وبما أن الغرائز تلح دائمًا على الإرواء المباشر دون أي اعتبار، فإن التمدن الحقيقي يتجلى في اهتمام الإنسان بالآجل والتضحية بالعاجل للفوز به، وبهذا المقياس فإن المسلم الذي يسيطر على رغباته رجاء ما عند الله ـتعالىـ متمدن حقيقي.

5ـ يسعى الإنسان المتمدن إلى أن يكون هناك نوع من التطابق والانسجام بين متطلبات هويته وعقيدته ومتطلبات عيشه؛ فلا تكون حركته اليومية في تحقيق مصالحه عبارة عن صفعات متتالية على مبادئه وقيمه. إنه يجاهد في كل

اتجاه من أجل أن يستمر في ترتيب شؤونه وأوضاعه في إطار عقيدته. وحين يفقد الإنسان الإحساس بضرورة تلك المجاهدة يكون قد تلبس بأسوأ حالات الهمجية والتخلف.

إن استحضار هذه المعاني ونحن نربي الجيل الجديد ـ في غاية الأهمية. ويجب أن يلمس أبناؤنا وطلابنا من خلال علاقاتنا بهم أننا نعطي هذه الأمور أهمية خاصة؛ ولذا فإننا نحاول تجسيدها في حياتنا اليومية.

الحوار لا المناظرة:

لو عدنا إلى التربية الأسرية التي تلقيناها ونحن صغار، ولو عدنا كذلك إلى أسلوب التعليم الذي تعلمنا به في المدارس ـ لوجدنا أن الكبار كانوا يمارسون عملية إلغاء للصغار، فتكلّم الصغير أمام الكبير مُخِلٌّ بالأدب الرفيع الذي يجب أن يتحلى به الناشئ، وسؤال الطالب لأستاذه عن دليل القول الذي يقوله تشكيك في معرفة الأستاذ، وأحيانًا في أمانته وهكذا... لكن تاريخنا الثقافي والاجتماعي ينضح بما سموه (المناظرة)؛ حيث يمارس كل واحد من المتناظرين ـعلى مستوى الكبارـ نوعًا من الإلغاء للآخر؛ حين يبذل كل جهده لإظهار أن مناظره على خطأ. وهو ينطلق أساسًا من اعتقاد خاطئ يجعله يرى أنه على الحق القاطع الذي لا يشوبه شك. وبهذا نكون قد مارسنا الإلغاء في حالة الصمت وفي حالة المثاقفة!

لسنا بحاجة إلى المناظرة، ولكننا بحاجة ماسة إلى الحوار؛ حيث إن كل واحد من المتحاورين لا يحرص على إقناع صاحبه برأيه ليتبناه، ويعدل عن رأيه الخاص، وإنما يقوم بإضاءة نقطة مظلمة، وتوضيح قضية غامضة لا يراها المحاور الآخر على الوجه الصحيح. وهكذا يكون الحوار هادئًا باردًا وديًّا؛ لأنه

يستهدف النفع المتبادل، وليس الاستيلاء والاستحواذ. ومن المهم جدًّا أن نجعل الحوار أساسًا في حياتنا؛ ولا سيما في المجال التربوي. إنه لا ينبغي أن نطلب من الحوار أن يوصلنا إلى الاتفاق مع من نحاوره، ولكن نأمل منه أن يوفر لنا أساسًا مقنعًا للاختلاف وتعدد وجهات النظر. ومن الواضح أننا كثيرًا ما نزعم أننا نتحاور، ولكننا في الحقيقة نتناظر؛ ولذا فإننا نُكدِّر قلوبنا، ولا ننير عقولنا. وكثيرًا ما يبدأ حديثنا مع من نربيهم على شكل محاورة، وينتهي إلى أن يكون مناظرة خشنة؛ حيث نحاول فرض رأينا عليهم بالقوة؛ وإذا لم يُظهروا لنا أنهم مقتنعون غضبنا، وكثيرًا ما نستشعر في طول المحاورة نوعًا من الإهانة لنا!

إن طلابنا يملكون كثيرًا من الرؤى والأفكار الجميلة، لكن لأننا مشغولون جدًّا بشرح المناهج والمقررات، فإننا لا نتيح لهم الفرصة لإظهار ما لديهم. ويكون مصير تلك الأفكار ـوالتي قد تكون حيويةـ إما الذبول والضمور، وإما الانحراف والاعوجاج. والحقيقة أننا حين نمارس الحوار على وجهه الصحيح لا ننفع طلابنا فحسب، وإنما ننفع أنفسنا أيضًا؛ حيث إننا من خلال الحوار والنقاش ننضج أفكارنا حين نعرضها للتشذيب والتهذيب والإضافة والنقد. وإن جزءًا مهمًّا من عظمة أي أسلوب وأي نظام يُستمد من كونه قابلاً للمراجعة والتطوير.

الحذر في إدارة معطيات العلم:

لا يستطيع أحد أن ينكر الرفاهية التي تولدت عن التقدم العلمي، كما لا يمكن إنكار المشكلات الكثيرة التي تم حلها عن طريق البحوث الأساسية

والتطبيقية خلال القرنين الماضيين. ومع أن المسافة التي تفصل المسلمين عن الدول الصناعية على الصعيد البحثي والتقني ما زالت شاسعة؛ فإن هذا لا يمنعنا من التحذير من أضرار الثقة المفرطة بالعلم. ولا أقصد هنا التهوين من شأن العلم والتقدم العلمي، وإنما أقصد أن العلم لا يملك أخلاقية خاصة تجعل معطياته غير قابلة للتوظيف فيما يعود على البشرية بالضرر. ومن الواضح اليوم أن الوازع الأخلاقي يتراجع على مستوى العالم لدى شرائح كثيرة، وأن سيطرة نظام التجارة سهَّلت التزوير والغش على صعيد كل الصناعات. كما أن الإعلان التجاري يُوجِد لكثير من السلع والخدمات ميزات غير ثابتة علميًّا. هذا كله يعني أن علينا أن نتعامل مع معطيات العلم بحذر، وألا نثق بكل ما ينشر ويقال عنه: إنه مبني على دراسات وبحوث علمية. وعلينا أن ننبه الأجيال الجديدة إلى أن المستقبل سوف يشهد المزيد من الاستخدام السيئ للمعطيات العلمية؛ حيث إن التقدم العلمي نفسه يسهِّل القيام بعمليات خطرة جدًّا من خلال استخدام عتاد محدود، كما هو الشأن في الاستنساخ، وفي الهندسة النفسية، والحرب الجرثومية.

تربيتنا مرآة لنا:

حين يولد الطفل يكون أكثر ما يملكه عبارة عن استعدادات للنمو والاكتمال. ومن خلال الصور اليومية التي يشاهدها تتشكل شخصيته وتتراكم خبراته. ولا يشترط لذلك أن يكون الطفل طرفًا في الأحداث التي ينفعل بها؛ إنه يراقب ويشاهد تفاعل أبويه وإخوته وكل القريبين منه مع بعضهم ومع أحداث الحياة المختلفة؛ ومن مراقبته لذلك التفاعل يلتقط الكثير من الصور التي تترك بدورها في ذهنيته انطباعات معينة، وعن طريق تلك الانطباعات تأخذ ملامح شخصيته بالتشكل، ولا يستفيد أولئك الذين يتظاهرون أمام الأطفال بالسلوك

الحسن شيئًا ذا قيمة من وراء ذلك التصنع، فالأطفال يدركون ما وراء المظاهر كما يدرك الكبار، وإن كانوا غير قادرين على التعبير عما أدركوه. هذا يعني أن على الأبوين خاصة أن يكونوا صرحاء مع أبنائهم، وأن يراجعوا معهم الانطباعات والمفهومات التي تتشكل لديهم عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. ولا شيء يفيد في هذا الشأن كالاستقامة الشخصية لأفراد الأسرة، فهي وحدها التي تجعل تكوّن شخصية الطفل يتم على النحو الصحيح، وبطريقة آمنة. إذن كما نكون تكون تربيتنا، وهامش المناورة أمامنا ضيق.

تأسيس حُبِّ النظام:

نحن جميعًا نسعى من وراء ما نبذله من جهود تربوية إلى أن نؤسس لدى أبنائنا وطلابنا نظامًا للمفهومات الصحيحة والقيم الإيجابية والخيرة، ولكن يعكر ذلك علينا الأوضاع السائدة والمشوبة بالخير والشر والفضيلة والرذيلة؛ كما يعكره علينا الطوفان الرأسمالي من بضائع وخدمات وتقاليد وعادات لا تنسجم مع أي قيم أخلاقية، ولا تساعد على أي تقدم تربوي. وقد تحول كثير من الفتيان والشبان إلى أدوات استهلاكية! فما الوسيلة التي يمكن أن نستخدمها في غرس القيم التي نريدها، وفي تعليم أبنائنا الفرق بين الغث والسمين والنافع والضار؟

في تصوري أن أفضل وسيلة للحصول على ذلك تتمثل في ترسيخ حب النظام في نفوس الطلاب، والتأكيد على احترامه، والالتزام به في سلوكهم وعلاقاتهم. حين يرى الطفل الذين حوله ملتزمين بشد حزام الأمان في سياراتهم ـمثلاًـ فإنه يدرك أن ذلك مهم، ويبدأ بالتساؤل: لماذا هو مهم؟ وحين يرى أبويه يلتزمان الصدق، ويبتعدان عن الكذب، ويحذّران منه يبدأ بالتساؤل: لماذا يجب أن نبتعد عن الكذب؟ وهكذا... لكن حين يرى بعض الناس حوله يفعلون